تدمر محطة هامة على طريق القوافل خلال الألف الثاني قبل الميلاد

عيد مرعي

جامعة دمشق ـ قسم التاريخ ـ سورية

كان هناك طريقان بريان رئيسان للتجارة والمواصلات يصلان بين سورية وبلاد الرافدين خلال الألف الثاني قبل الميلاد، ويمتدان من ضفاف الفرات شرقاً حتى سواحل المتوسط غرباً.

وكان الأول ينطلق من منطقة الفرات الأوسط بالقرب من ماري (ربما من موقع عانه الحالي) ويسير بمحاذاة الفرات باتجاه شمال غرب حتى يصل إلى مدينة ايمار (مسكنة حالياً) التي كانت تشكل خلال الألف الثاني قبل الميلاد ميناءاً هاماً على الفرات وعقدة ضرورية للاتصالات البرية والنهرية بين شمال سورية وبلاد الرافدين. ومن هناك كان يخترق سهول سورية الشمالية حتى يبلغ حلب حيث يتفرع إلى فرعين يمتدان إلى سواحل البحر المتوسط إما إلى الالاخ (تل عطشانة حالياً) أو إلى اوغاريت (رأس الشمرة). من حلب كان هناك طريق رئيس يذهب باتجاه الجنوب إلى قطنة (المشرفة حالياً الواقعة شمال شرق حمص) ودمشق، ثم من هناك إلى فلسطين فوادي النيل.

أما الطريق الثاني الواصل ما بين سورية وبلاد الرافدين فكان يخرج كالطريق الأول من منطقة الفرات الأوسط بالقرب من ماري وينطلق عبر بادية الشام ماراً بتدمر وقطنة وبمنخفض حمص حتى يصل إلى سواحل البحر المتوسط (جبيل). وعند قطنه كان يتقاطع مع الطريق القادم من الشمال من حلب والمتجه جنوباً إلى دمشق وفلسطين.

كانت تدمر تشكل محطة هامة على هذا الطريق وبداية لفرع منه يذهب باتجاه جنوب غرب إلى نشالا/نزالا (القريتين حالياً) حتى يلتقي بالطريق القادم من الشمال من حلب وقطنة والذاهب إلى دمشق[1].

وعلى الرغم من تفضيل المسافرين والقوافل للطريق الأول المار عبر ايمار وسهول سورية الشمالية بسبب سهولتها وتوفر المياه والأمن عليها بشكل أكبر فإن الطريق الثاني المار عبر تدمر كان يستخدم أيضاً لقصره. وهناك إشارات عديدة إليه في النصوص المسمارية المختلفة.

وكدليل على أهمية تدمر كمحطة هامة على هذا الطريق فإنها تذكر أو يذكر رجال تدمريون في بعض النصوص المسمارية العائدة إلى الألف الثاني قبل الميلاد.

فهناك نص آشوري قديم من المستوطنة التجارية الآشورية كاروم كانيش (كول تبه حالياً) التي ازدهرت في الاناضول في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، يذكر رجلاً من تدمر يدّعى پوزور عشتار التدمري[2]:- Puzur-Ishtar Ta/Da-ad-mu-ri-im

ويعد هذا أقدم ذكر معروف حتى الآن لتدمر أو لتدمريين في النصوص المكتوبة ولكنه لا يقدم لنا أية

معلومات عن طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين تدمر وكاروم كانيش في تلك الفترة.

وتظهر تدمر في بعض نصوص ماري (النصف الأول من القرن ١٨ ق.م) العائدة إلى عهد السيطرة الآشورية عليها عندما كان يحكمها يسماخ ادد بن العاهل الآشوري القوي شمشي ادد الأول.

فهناك رسالة من احد الموظفين الكبار إلى سيده يسماخ ادد، هي أشبه ما تكون بالتقرير عن أحوال المنطقة المسؤول عنها هذا الموظف، يذكر فيها أن الفين من البدو السوتيين تجمعوا للقيام بغارة على مراعي قطنة (الأسطر ٨-١٣). وقبل ذلك قامت عصابة منهم مؤلفة من ستين رجلاً بالإغارة على تدمر ونشالا، لكنها اضطرت للعودة بأيد فارغة بعد أن قتلت أحد سكان تدمر من السوتيين (الأسطر ١٤ - ٢١).

ونورد فيما يلي هذه الرسالة[٣] :

إلى سيدي يسماخ أدّو

يقول

مايلي تاريم شاكين Tarim-Shakin

خادمك :

جزيزانوم Gazizânum،

أبي ساري Abi-Sarê،

خامي اوركو Ḫami-urku . . .،

والفان من السوتيين

لتشكيل جيش

تجمعوا، ولغزو بادية (مراعي)

بلاد قطنة

خرجوا.

لكن قبل الآن

ستون سوتياً، عصابة

أخرى لغزو تدمر Tadmer

ونشالا ذهبوا،

(لكنهم) عادوا وأيديهم فارغة،

ورجلاً من سوتيي تدمر

قتلوا

هذا الخبر المتعلق بالسوتيين وصلني

وأنا إلى سيدي

أرسلت.

يمكن الاستنتاج من هذه الرسالة أن المدن الثلاث المذكورة (قطنة وتدمر ونشالا) كانت غنية، لذلك أصبحت هدفاً لغارات البدو.

وبالتأكيد لم تكن تلك الاعتداءات الوحيدة التي تمت. فعودة عصابة السوتيين من هجومهم على تدمر ونشالا بأيد فارغة ومقتل أحد سكان تدمر يعني أن معركة حصلت بين الجانبين، وأن سكان تلك المدينتين كانوا على أهبة الاستعداد دائماً لرد مثل هذه الاعتداءات والدفاع عن أنفسهم بشكل جيد. غير أن الملفت للانتباه في هذه الرسالة وجود بدو سوتيين مقيمين في تدمر حيث قتل أحدهم في الغارة المذكورة.

تجدر الإشارة أن اعتداءات البدو على القوافل التجارية والمسافرين ومحطات القوافل كانت تحدث أكثر في السنين المجدبة منها في السنين الجيدة.

ويوجد نص ثان من ماري يتحدث عن وصول أربعة رجال تدمريين من قطنة :

« ٤ رجال تدمريون وصلوا من قطنة »[٤].

ويذكر نص ثالث رجلاً من تدمر[٥]:

I ul-lu-ri- Lú Ta-ad!-me-er

بالإضافة إلى هذه النصوص التي يرد فيها ذكر تدمر أو ذكر تدمريين بشكل صريح هناك بعض النصوص الأخرى من ماري التي يستنتج من محتواها أهمية تدمر كمحطة هامة على طريق المواصلات بين سورية وبلاد الرافدين. فهناك رسالة من شمشي ادد الأول العاهل الآشوري إلى ابنه يسمخ ادد في ماري تتحدث عن قافلة خمر (ā liktum ša GEŠTIN)[٦] متجهة إلى قطنة ويجب أن تزود في ترقا الواقعة على الفرات (تل عشارة حالياً) بمؤن تكفي لمدة عشرة أيام حتى تستطيع الوصول إلى قطنة في وسط سورية.

فيما يلي نص الرسالة[٧] :